

دراسة

# واجب المقاومة الفلسطينية من منظور طه عبد الرحمان

حدثتها، أخلاقها وثغورها

إحياء  
Ihyaee



محمد زاوي



30 ماي 2021

جميع الحقوق محفوظة © 2021

## محاوَر الدراسة:

1- مدخل / حزننا التاريخي من فلسفة طه عبد الرحمان

2- حادثة المقاومة

3- أخلاق المقاومة

4- نُغور المقاومة

## 1- مدخل / حظنا التاريخي من فلسفة طه عبد الرحمان

لا نخاطب بدراستنا هذه أولئك الذين لا يعرفون عن طه عبد الرحمان إلا: قبعة الفيلسوف، ومشاهدة العارف، واعتكاف أيام، وكثافة اللفظ، ونقده الجابري والعروي... إلخ. وإنما لا نخاطب هنا أولئك الذين يقرؤون الكتب كأنها الأوراد، يتلونها على استحياء وقد وصل إلى قلوبهم أصحابها قبل مضامينها. إنما لا نتكلم مع هؤلاء إلا إذا تراجعوا عن الوهم إلى الحقيقة، وعن الغطاء إلى البصر الحديد، وعن العيش داخل الفيلسوف إلى العيش خارجه. ومنذ البداية، فإننا لا نريد أن يقارننا أحد بطه عبد الرحمان. فهو فيلسوف كبير، ونحن من النقاد الصغار الذين يحاولون فهمه في شرطه التاريخي وبعده المعرفي. ومهما كانت عبارتنا يقينية، فهي في داخلها لم تكتمل بعد.

تكلم في طه عبد الرحمان مؤيدون جعلوا منه فيلسوف العصر في الأمة الإسلامية، بل وفي العالم الذي لا ينبغي له أن يدين إلا بدين الإسلام. وتناول متنه بالنقد معارضون اعتبروا فلسفته أدلوجة زائفة تخفي واقعنا الحقيقي، كما وجدوها استعادة لأقوال السابقين من مفكري الإسلام في أثواب جديدة. هي إذن، أربع فرق معاصرة وجدت نفسها في خضم مناقشة متن طه عبد الرحمان، قبولاً ورفضاً، دون أن تختار ذلك:

### - متصوفة العصر:

اعتدوا به وبإنتاجه ونسبوه إليهم (الطريقة البودشيشية مثلاً)، وزعموا أن متنه يمثل ضحا لدماء جديدة في جسم التصوف الإسلامي. إنه، في نظرهم، إحياء للغزالي وابن عربي والتبريزي والشيرازي والحلاج والبسطامي... وغيرهم. يجدون في فلسفته تبريراً لشطحاتهم وأحوالهم، لا بمضمونها فحسب (المضمون قابل

للتأويل في هذا الاتجاه)، وإنما بنزوع صاحبها إلى قاموس وسلوك "المشيخة/ الحضرة/ الذكر" في حياته الخاصة.

### - الحركة الإسلامية:

إنها تجد فيه "عرضا مواربا لما قاله سيد قطب صراحة" (عفيف الأحضر). تغطي به قصورها وضعفها النظريين، وتجعله قناعا لمعركتها على النقيض من "المعرفة الحديثة". تجد فيه ضالتها كلما فرّت من تمييز تفرضه قواعد التاريخ، ذلك هو التمييز بين "الغيب" و"الشهادة". يسندُ خلطها بين هذين العالمين بكمّ هائل من التفصيل المثالي وتوليد المفاهيم على غير أساسها الواقعي، فتجد في "دنيانيتها" و"دهرانيتها" و"علمانيتها" و"علمانيتها" "إيديولوجيا مضعّفة" (بتعبير عبد الله العروي) لمعركتها على النقيض من "العلمانية" كمعركة ذات وجهين: وجه مقبول وتقدمي، ووجه مرفوض ورجعي. الأول هو وجه الدفاع عن قيم الإنسان وذاكرته وخصوصياته، واعتبار إشكالياته التاريخية الخاصة لا إشكاليات غيره في علاقته بالدين. والثاني هو وجه إفناء "عالم السياسة" بـ"عالم القداسة"، والحقيقة أن لكل منهما مجاله الخاص، واعتماد الدين كسياسة لا يعني أن يفصل القول في كل شأن سياسي.

### - تيار التاريخانية:

وهؤلاء يوجهون لطفه عبد الرحمان نقدا معرفيا تاريخيا، بالرغم من تقاطعهم معه في بعض الغايات النبيلة، وفي نجاعة إيديولوجية قد يكتسبها خطابه في شرط تاريخي ما. وهو، في نظرهم، مثالي يجعل من الظاهرة الملموسة ملكا لشعوره، فيفعل فيها ما يشاء. يؤكد المفاهيم دون أن يثبت لها أساسا واقعيًا، فتبتعد مفاهيمه كل البعد عن "الترابط والتناقض والتحول في الواقع

الملموس". يدعو إلى "ما ينبغي أن يكون" كما يأمل في خياله، ولا يهتم بـ"ما هو كائن" في التاريخ. إنه، في نظر هذا التيار، واعظ جعل لقوله مسلكا أكثر تعقيدا من غيره من الوعّاظ.

### - تيار ما بعد الحداثة:

وهؤلاء هم الذين وجدوا في فلسفته معركة على التفكيك والإسالة ونشر العدمية واللاأدرية والعبثية واللامعنى، فهبوا إلى نقده نقدا غير علمي، وغير تاريخي. كان نقدهم غير علمي لأن مقولاتهم مجرد شذرات لا تنتج كلاً علمياً، ولا تستوفي شرط العلمية في كل جزئية علمية على حدة. وكان غير تاريخي، لأنهم لا يناقشون "الدين والإيديولوجيات الدينية" على ضوء شرطنا التاريخي، بل على ضوء الشرط الغربي، أو بتوظيف من رأسمالية من الرأسماليات الاحتكارية (الرأسمالية الأمريكية خاصة).



إذا سألنا أحدٌ عن طبيعة متن طه عبد الرحمان، فإننا سنجيب: "طه عبد الرحمان هو الناقد الإيديولوجي الذي لا ينفك ينفذ إيديولوجيا بأخرى". أما إذا سُئِلنا عن موقفنا من هذا المتن، فإننا سنجيب: "إنه متن ناجع في التاريخ، يتنفس هواءه تحت سطح المعرفة الحديثة". وفي حالة ما سألنا بعض التاريخانيين عن الجوهر التاريخي لمتنه، فإننا سنجيبهم بقولنا: "جوهره هو الاستعمار كشرط أساسي، والتفاوت الطبقي كشرط مُستبطن فيه، محليا وعالميا". وبالتالي، فقد كان طه عبد الرحمان معبراً عن واقعنا، حيث تتخلف فلسفتنا معرفياً، ولا نجد إلا أن نكون في حاجة إليها إيديولوجياً. وبقدر ما نكون فوق طه عبد الرحمان للحكم عليه، فإننا نكون معه أو تحته في كل معاركنا التاريخية.

## وما معاركنا التاريخية؟

إنها معارك شتى، تعود في أصلها إلى معركتين:

### - مواجهة الاستعمار الجديد-القديم:

وفي هذا يأتي تأييد طه عبد الرحمان لخيار المقاومة، وبالضبط مقاومة الكيان الصهيوني في كل من لبنان وفلسطين. الاستعمار القديم هو الاستعمار العسكري، وهو اليوم منحسر في فلسطين وسبتة ومليلية... إلخ، كما أنه يتجدد كما حصل في العراق ولبنان ثم سوريا وليبيا فيما بعد (ب طرق جديدة). وقد أسمىنا الاستعمار العسكري الحاصل اليوم استعمارا جديدا-قديما، لأنه تشكيل قديم يتجدد في زمن الاستعمار الجديد.

وعلى النقيض من هذا الاستعمار توجد المقاومة في فلسطين ولبنان. وحيث تحاصر هذه المقاومة ويُشكَّك فيها، فإن طه عبد الرحمان يدعمها ويؤيدها بأن يجعل لها "فلسفة" (أدلوحة) نافعة في التحريض والتحرك، مهما كانت زائفة في تحديدها لطبيعة الصراع القائم بين "الكيان الصهيوني" والوطن العربي.

وبدل أن يُنصت لظه عبد الرحمان رجل واحد، وجب أن ينصت له رجلان: مناضل يقرأ ويُنظر، ومناضل يقاوم في ميدان المعركة. يعرف الأول أن "طه" لا يجدي في تفسير ما يقع، ويكتفي بتبشير المناضلين بأن لهم فيلسوفا يدافع عنهم حيث تتصارع "الفلسفات"، دون أن ينسيه ذلك تقريبتهم من متنه ("طه") حيث تُعرَض "عقيدة التوحيد" في أبهى صورها. أما الثاني، فهو يتحمس لقضيته - أكثر من ذي قبل-إذا علم أن لها "فلسفة"، ويزداد ارتباطه بها إذا تلقى من متن "طه" بعضه عن وساطة وشرح.

### - مواجهة الاستعمار الجديد:

الاستعمار الجديد حربٌ معلنة وجارية التنفيذ على هويتنا الوطنية وخصوصياتنا الثقافية، على ذاكرتنا وتاريخنا، على أسرنا وقيمنا الأخلاقية... وما إليه. لا تُستهدف حدودنا الترابية وحدها، ولا اقتصادنا وحده، ولا سيادتنا السياسية وحدها؛ بل إن أخلاق ناشئتنا وقيم تماسكها وارتباطها بالوطن هي التي تستهدف أولاً، أو لعل الاستهداف الأول طريق للثاني وابتزاز في سبيله.

وهكذا، فإننا في حاجة إلى إيديولوجيا تتمركز حول نمط بعينه من التخليق، وذلك مدخل ناجع لتعزيز نموذج الوطنية الذي نريد. فما يؤثر في الناس من تراثنا، و"خط الجماهير" الديني والثقافي، هو الأساس الذي يجب أن ينبني عليه كل خطاب وطني جديد. لا مشكل في زعم المواطن الخلود لهويته الوطنية، فتلك "أزمة معرفية" تطلب شروطها التاريخية لتُحلَّ في الوقت المناسب؛ بل المطلوب هو التزام تلك الهوية، مهما تعددت المداخل المؤدية إليها.

هذا، ولا يجوز لنا نسيان الدور الذي يلعبه طه عبد الرحمان في نقد "القيم الغربية". نختلف معه في نوع هذا النقد، ولكن وجود النقد مرحلة من مراحل تطويره، مهما كان قاصراً. نكتشف أزمة "النموذج الغربي" في الحضارة، ثم نكتشف بعد حين أنه "نموذج رأسمالي"، وأن كل نقد موجّه له يجب أن يوجّه للرأسمالية كنظام اجتماعي استغلالي. يوجه نقده لكل مادية ولكل فلسفة مادية، ثم يميز بعد حين بين "مادية علمية" و"مادية رأسمالية"، وبين "مادية في الشهادة" و"مثال وحقيقة في الغيب".

## 2- حداثة المقاومة

في نظر طه عبد الرحمان، وجب على المقاومة الإسلامية أن تميز بين "واقع الحداثة" و"روح الحداثة". ولتتمسك بـ"روح الحداثة" الخاصة بها، دون أن تقلد الغرب في "واقع حدائته" الناتج عن "روح الحداثة" الخاصة به. للغرب حدائته، وللمقاومة الإسلامية حدائتها. إن لـ"روح الحداثة" -عند طه عبد الرحمان- ثلاثة مبادئ:

**أولاً:** "مبدأ الرشد"، حيث "الانتقال من التبعية الفكرية والسلوكية (القصور) إلى تحصيل الاستقلال والإبداع في الفكر والسلوك (الرشد)".

**ثانياً:** "مبدأ النقد"، حيث "الانتقال من التسليم بالشيء، من غير أن يحصل أي دليل عقلي عليه ولا أن يجتهد في طلب هذا الدليل (الاعتقاد)، إلى الاستدلال العقلي على الأشياء والفصل التقني بينها بما يتيح ضبط أسبابها وكشف آلياتها (الانتقاد)".

**ثالثاً:** "مبدأ الشمول"، حيث "الانتقال من الكمون في خصوصية المجالات الحياتية وخصوصية المجتمعات الإنسانية (الخصوصية) إلى تجاوزهما (الشمول)".

هذه هي مبادئ روح كل حداثة في نظر طه عبد الرحمان، وهي في الغرب على النقيض مما يجب أن تكون عليه في بلاد الإسلام (لدى المقاومة الإسلامية). ف"التطبيق الغربي" يختزل كل مفاهيم "روح الحداثة" (الاستقلال، الإبداع، الاستدلال، الفصل، التأثير في مجالات الحياة، التأثير في المجتمعات) في نقيض ما يجب أن يتميز به "التطبيق الإسلامي" لتلك المفاهيم. ولذلك، كانت آفات "التطبيق الغربي" هي: آفة النسبية، آفة الانفصالية، آفة الأدوات، آفة التجزئية، آفة المادية، آفة الفردانية". وكلها، على النقيض من "القيم



الإسلامية: "قيمة الإخلاص، قيمة الكمال، قيمة الإيمان، قيمة التكامل، قيمة الروحانية، قيمة الرحمة".

يطول التفصيل فيما نقلناه عن طه عبد الرحمان، وحسبنا أن بينا هنا الخطوط العامة التي تميز "روح الحداثة الإسلامية" عن "روح الحداثة الغربية". يضع طه عبد الرحمان هذه الخطوط أمام عينيه، ثم يسائل إليها كل النماذج التي يشهدها العالم العربي الإسلامي. وحيث يغيب "الانبعاث من الداخل" و"الالتزام بالاجتهاد"، تُمحي تلك الخطوط، وينزع الإنسان العربي إلى تقليد نموذج الحداثة الغربية في "روحها وواقعها"<sup>1</sup>.

إن المقاومة الإسلامية في نظر طه عبد الرحمان، "هي قيام طائفة من المسلمين بدفع الشرور التي ابتلي بها الناس في الزمن القائم، مجددة الوعي بالقيم الإنسانية التي اكتملت مع الدين القيم".

ثم يقول طه عبد الرحمان: "إن المقاومة الإسلامية بقيادة حزب الله هي أقدر مشاريع التجديد الديني الحديثة قياما بتجليات الإسلام المختلفة، بحيث تمكن الأمة من قومة (غير قومة عبد السلام ياسين) متكاملة تدخل بها عهد الانتصار على قوى الظلم والشر"<sup>2</sup>.

لم تكن "المقاومة الإسلامية" في لبنان (حزب الله) لتنتصر على "الكيان الصهيوني"، في "حرب تموز" (2006)، لولا قيامها بتجليات الإسلام المختلفة. وقيامها بتجليات الإسلام هو -في نظر طه عبد الرحمان- المعبر الوحيد عن: - الاقتراب من "روح الحداثة" في حقيقته؛ - تجسيد الاقتراب من تلك "الروح" في

---

1- طه عبد الرحمان، الحداثة والمقاومة، معهد المعارف الحكمية للدراسات الدينية والفلسفية، الطبعة الأولى، 2007، من ص 23 إلى ص 43.  
2- نفسه، ص 52.

الواقع العربي. لقد تجاوزت "المقاومة الجنوبية" (حزب الله في لبنان) بذلك ثلاثة مشاريع: "المشروع الإحيائي الذي فصل بين القيم العقدية ولوازمها من القيم الروحية، المشروع الإصلاحية الذي فصل بين القيم الفكرية ولوازمها من القيم العملية، المشروع الأصولي الذي فصل بين القيم السياسية ولوازمها من القيم الأخلاقية". وخلاصة ما ذكرناه هو أن "المقاومة" تجاوزت كل المشاريع السالفة بـ "التكامل العمودي"، حيث تتحقق ثلاثة تكاملات: "تكامل الخاتمية (بالربط بين القيم العقدية والقيم الروحية)، تكامل العالمية (بالربط بين القيم الفكرية والقيم العملية)، تكامل الجامعة (بالربط بين القيم السياسية والقيم الأخلاقية)". هذا، ولا ينبغي أن تبقى هذه التكاملات بلا رابط يربط بينها، بل المطلوب هو الوصل بينها "أفقياً" (التكامل الأفقي)، ولا يتم ذلك إلا بـ "الولاية العامة"<sup>3</sup>.

ولما كانت "المقاومة الجنوبية" كذلك، فقد نصرها الله نصر عزيزاً. يقول طه عبد الرحمان: "ولما كانت المقاومة الإسلامية قد اختصت بكون الإسلام تجلى فيها بالحالة التكاملية، فقد تجلى عليها الحق سبحانه وتعالى بنصر مبين"<sup>4</sup>.

ويبقى مجهود طه عبد الرحمان تأملاً خاصاً به، لا يجده "المقاوم" (بما في ذلك قيادة "المقاومة") جزءاً من وعيه وممارسته كما نظّمه طه ورتّبته لقراءه، فكان متناً يسرّ الناظرين. إنه في حاجة إلى "زعيم مقاومة" يلهب به حماس "المقاومين"، بعد أن يعلمهم بأنّ لهم فيلسوفاً يدافع عنهم بالقول الفلسفي. ولا بأس في ذكر بعض المقاطع من متنه، فـ "السحر" ينفع في سياقه حيث يكون مطلوباً. أما انتصار المقاومة، فهو خاضع لا محالة لأسباب: قوة العقيدة

3-نفسه، من ص 89 إلى ص 92.

4-نفسه، ص 91-92.

(الإيديولوجيا)، العناد الحربي، الجغرافيا، التناقضات العالمية والإقليمية... إلخ. وكل هذا مندرج تحت "خطاب طه عبد الرحمان"، كما يندرج تحته الزهد في "الأسباب المادية". وهكذا، يصبح هذا الخطاب حمّال أوجه، يذلّنا في أوجه، ويعزنا في أخرى. وعليه، فإما أن تكون لطفه النجاعة الإيديولوجية، وإلا فلا فائدة تُرجى من "جدارته في توليد المفاهيم".

### 3- أخلاق المقاومة

يجب أن تقف الشعوب العربية الإسلامية جميعها على ثغر المقاومة، ولذلك فما يجب من الأخلاق على المسلم (والإنسان عموماً) فهو من الأخلاق الواجب توفرها في المقاوم. وهنا نتساءل: بماذا يجب أن تتميز أخلاق المقاومة الإسلامية (وهي أخلاق المسلم والإنسان عموماً)؟

يحرص طه عبد الرحمان مميزات أخلاق المقاومة فيما يلي:

- أن تكون "أخلاقاً دينية".

ولذلك، فإن طه عبد الرحمان يقف على النقيض من موقفين: "تبعية الدين للأخلاق" (إيمانويل كانط ومن تبعه)، و"انفصال الدين عن الأخلاق" (دافيد هيوم ومن تبعه).

ينتقد الموقف الأول على أساس أنه موقف "استبدالقي قياسي"، إما يضع أخلاقاً "علمانية" محل أخرى "ديانية"، أو يقيس تلك على هذه.

أما الثاني، فهو لا يميز بين "الشريعة الدينية" و"النظرية العلمية" من جهة، و"يستبعد أن يؤثر الدين في الأخلاق" من جهة أخرى. وما يغيب عنه في عدم التمييز بين "الشريعة" و"النظرية" هو طبيعة كل منهما، إذ "الشريعة" مؤسسة تنطوي على أحكام وجوب كما تنطوي على أحكام وجد، فيما "تنطوي النظرية على أحكام وجود فقط". وحقيقة رفض طه عبد الرحمان لـ"استبعاد تأثير الدين في الأخلاق" أن "الوعي بأن للقيمة الأخلاقية مصدراً خاصاً في ذات الإنسان إنما

يرجع إلى تصريح النص الديني بذلك، كما أن الخبر في الدين لا يمكن أن يكون خبراً صرفاً، بل إنه لا ينفك عن واحدة أو أكثر من القيم الأخلاقية".<sup>5</sup>

الدين أصل، وهو نقيض "العلمانية" (في نظر طه عبد الرحمان)<sup>6</sup>. فلا يجب أن تقدّم أخلاق "العلمانية" على أخلاق "الدين"، كما لا يجب أن يضلنا بناء "العلمانية" على أخلاقه (الدين). ومجال الأخلاق الشريعة لا النظرية، لأنها تدخل في الوجوب أكثر من دخولها في الوجود. والدين مؤثر في الأخلاق، بل هو أساسها. فالله هو مودعها في ذات الإنسان، وهو دالّه (الإنسان) عليها. والخبر في دين الله، وعاء لأكثر الأخلاق.

في هذه الفقرة الأخيرة، حاولنا تركيز أساس الربط الذي يقيمه طه عبد الرحمان بين الدين الأخلاق، باعتباره الثانية متفرعة عن الأول.

فلسفة طه عبد الرحمان فلسفة "سلوكية عرفانية تداولية"، ولا أدل على ذلك من قوله: "فالدين عندنا لا ينحصر في شعائر ظاهرة لا معاني خفية تحتها، بل إنه لا فائدة من وراء الإتيان بالشعيرة من دون تحصيل السلوك وفق المعنى الخفي الذي يكمن فيها؛ كما أن الأخلاق عندنا لا تنحصر في أفعال كمالية لا حرج في تركها، بل هي أفعال ضرورية تختل حياة الإنسان بفقدانها، ولا هي تنحصر في أفعال محدودة لا توسع معها، بل هي أفعال لا نهاية لها، وفيها يدرك اللامتناهي قبل أن يدرك في سواها".<sup>7</sup>

---

5- طه عبد الرحمان، سؤال الأخلاق: مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 2000، ص 56-77/ الفصل الأول.

6- و"العلمانية" كمفهوم تطلب تمييزاً بين علمانيتين: شاملة تفصل بين الحياة وكل متجاوز، وجزئية تفصل بين الدين والسياسة نظرية وممارسة (عبد الوهاب المسيري). كما تطلب التمييز بين شرط تاريخي يقبل العلمانية الجزئية، وآخر لا يقبلها أو لا يقبلها إلا بمقدار. وجوهر "العلمانية الجزئية" أن يعود الدين للشعب، وألا تستغله السلطة في تناقضها معه، هذا هو المقصد الجوهرى للفصل بين الدين والسياسة (عبد الصمد بلكير).

7- نفسه، ص 57.

من "العرفان"، ما يقتفيه طه عبد الرحمان من معانٍ خفية في الشعائر. ومن "التداول"، القول بـ"ضرورة أفعال الأخلاق ولا نهائيتها". وبهذا، يتأكد قولنا بأن فلسفة طه عبد الرحمان "فلسفة سلوكية عرفانية تداولية". ولكونها كذلك، فهي لا تفسر الأخلاق إلا بـ"العرفان الخاص" و"المجال التداولي الخاص"، فيبقى تفسيرها في حاجة إلى تفسير. تدعي هذه الفلسفة كونيتها وعالميتها في "الكل"، والحقيقة أنها كذلك في "جزء من كل جزئين". إنها كونية وعالمية في "الغاية"، لا في "التفسير" (و"الكل" لا يكتمل إلا بهما معاً، ولكل منهما قواعده ومميزاته).

لا تهم المقاوم كلُّ هذه التفاصيل، وواجبه أن يعرف الغاية وطريقة السلوك إليها، والدين "منقذه من الضلال" في هذا الباب. يبني على ما لديه، ليقف في وجه "الإسالة القيمية". معارك المقاومة تطلب "الصلابة والتماسك"، والدين ذو فعالية في الربط بين: "الفعل والغاية"، "الأصل والفرع"، "النفوس والتاريخ"، "العلم والعمل"، "التضحية والمصلحة"، "التجاوز والكمون" (المسيري)... إلخ. إنه كذلك، في "مجالنا التداولي". وهذا أولى للمقاوم، وأسلم له من أن يضل ويبقى عرضة "للتفكيك والإسالة".<sup>8</sup>

- أن تكون "أخلاقاً مؤيَّدة":

وهي أخلاق تدفع بالإنسان في اتجاه اكتساب "عقلانية مؤيَّدة"، وهذه هي أوج "العقلانية المسدَّدة"، ونقيض "العقلانية المجرَّدة". تلك هي أخلاق الدين التي تديم لدى الإنسان "الاشتغال بالله والتغلغل فيه".

---

8- في التفكيك الديني: وسائله عديدة، لعل أبرزها هو تفكيك الدين بالمعرفة الحديثة. والحقيقة أن مجتمعاتنا ليست مهيأة لذلك بعد، والمقصود أن تكون مهيأة هو أن يحصل في عقل كل فرد من أفرادها تمييز بين ثلاثة مستويات: الدين في المختبر، الدين في التاريخ، الدين في النفس. ولا يتأتى هذا التمييز إلا للعباقرة في شرط قديم، أو لكل المجتمع في شرط تاريخي يفرضه (التمييز) فرضاً.

وجب، إذن، لتحديد مفهوم "العقلانية المؤيدة" -التي بها تتحدد "الأخلاق المؤيدة"-، أن نحدد مفهومي "العقلانية المجردة" (=نقيض العقلانية المؤيدة) و"العقلانية المسددة" (=وجب تتويجها بعقلانية مؤيدة).

"العقلانية المجردة": "خاصية الفعل الإنساني الذي يقوم في السعي إلى تحقيقها مقاصد لا يقين في نفعها، بوسائل لا يقين في نجوعها".

و"العقلانية المسددة": "خاصية الفعل الإنساني الذي يقوم في السعي إلى تحقيقها مقاصد نافعة، بوسائل لا يقين في نجوعها".<sup>9</sup>

أزمة الأولى مقاصدية وسائلية، ولا أزمة للثانية إلا في الوسائل. تكتفي الأولى بذاتها في المقاصد والوسائل معا، فيما تكتفي الثانية بذاتها في الوسائل فقط. تلك الأزمة في العقلانيتين هي ما تجاوزته "العقلانية المؤيدة"، لأنها تطلب "النفع في المقاصد" و"النجوع في الوسائل" معا. وهما معا، في منطقتها، مبنيان على اليقين، وهذا من يقين "الغيب والوحي".

يقول طه عبد الرحمان، معرفا "العقلانية المؤيدة": "خاصية الفعل الإنساني الذي يقوم في طلب تحقيق مقاصد نافعة وبوسائل ناجعة؛ ولا يتم هذا الجمع بين نفع المقاصد في ثباتها وشموليتها وبين نجوع الوسائل في تغييرها وخصوصيتها إلا بدوام الاشتغال بالله والتغلغل فيه".<sup>10</sup>

هذه العقلانية، كما تقدم، هي نتيجة أخلاق من صنفها: "الأخلاق المؤيدة". وفي ذلك، يقول طه عبد الرحمان: "المتخلق بأخلاق الدين وحده هو الذي يحصل رتبة العقلانية المسددة، ثم يرتقي منها إلى رتبة العقلانية المؤيدة متى اتقى الآفات التي تدخل على عمله. وواجبه هو أن يعمل جاهدا من أجل الارتقاء إلى

هذه الرتبة الثالثة التي تجعل له عقلا كاملا، يدرك ما لا يدرك غيره، ويصيب حيث لا يصيب"<sup>11</sup>.

الغايات السامية، من عدل وصدق ونبل وحرية ونظام... الخ؛ كلها غايات خالدة، وتشكل طوبى الإنسان في الأرض. وطلب هذه الغايات هو ما يجب أن تضعه كل جماعة صوب عينيها، في شروط مقاومة أو شروط بناء. ولا نجاعة لغايات المقاومة، في نظر طه عبد الرحمان، إلا إذا كانت مؤيدة تُطالب بوسائل مؤيدة. وذلك هو التأييد الذي يجب أن يكون ديننا، بله إسلاميا على وجه مخصوص. وفي عبارة تأييد يكمن السر، فيعلم المقاوم أنه يكون مؤيدا إذا ابتغى الغايات المؤيدة بوسائلها المؤيدة. فتتال المقاومة الحسنيين: انتظام وانضباط في الأخلاق من جهة، وثبات بالتأييد في المعارك الميدانية من جهة أخرى.

- أن تكون "أخلاقا كونية":

ومعنى ذلك أنها ناتجة عن "الجمع بين العقل والشرع"، أي على النقيض من الذين يقولون بـ"التفرقة بين العقل والشرع". وهي "كونية" لأنها "أخلاق مؤسّسة لا مجتثة، متعددة لا قاصرة، شاملة لا محدودة، فتكون بذلك أوفى أخلاق للأفق العالمي للإنسان المنتظر"<sup>12</sup>.

وإننا نجد أنفسنا، هنا، أمام سؤالين:

أحقًا يمكننا اعتبار الأخلاق الإسلامية أخلاقا كونية؟

وكيف تفعل مقولة "كونية الأخلاق الإسلامية" في نفس المقاوم؟

11-نفسه، ص 76.

12-نفسه، ص 169.



إنها كذلك، في أعين معتقدي الإسلام، بلا منازع. والحقيقة أنها كونية في غاياتها، في حاجة إلى تكييف في وسائلها، أو هي في حاجة إلى التماس الأعذار على أقل تقدير. لكل مقاومة، في العالم، ما ينظمها ويثبتها ويقوي عزيمتها من مطلقاتها. وقد تحقق النصر لمقاومات كثيرة (حركة التحرر الفيتنامية مثلاً) بمختلف أنواع تلك المطلقات، فتحققت "المنفعة" في أهداف المقاومة، كما تحققت "النجاة" في وسائلها.

الدافع مطلوب ولا ينبغي إغفال أهميته، ومنه استتعار "التأييد" وطلب "الغايات السامية" والتخلق بـ"الأخلاق المؤيِّدة". إلا أن هناك عناصرَ أخرى مرتبطة بواقع الحرب نفسه، وذلك مثل ما تعلق من هذه العناصر ب: استراتيجية كل معركة، تكتيكها، مناوراتها، جغرافيتها، ميزان القوى فيها، سياقها الدولي... الخ. وكل هذه العناصر، بالإضافة إلى العامل النفسي (العقدي / الأخلاقي / التأييدي)، هو ما يصنع الفرق في المعارك. وعليه فالقول بـ"كونية الأخلاق الإسلامية" ونجاحاتها وحدها، دون غيرها من الأخلاق ذات "المرجعيات المفارقة" الأخرى، قول مرفوض. والمقبول أن الأخلاق الإسلامية أكثر نجاعة، وأكثر اتصافاً بالعالمية من غيرها (لدرجة عالية من التجريد يتضمنها الإسلام). وهذا موقف لا ينتج إلا مُميِّز بين "الوسائل" و"الغايات"، وبين "الحقيقة في الغيب" و"الحقيقة في الشهادة"، "الحقيقة في الذات" و"الحقيقة في الموضوع"، "النجاعة الخاصة" و"النجاعة العامة"... الخ.

يعلم المقاوم ويوقن أن أخلاقه كونية وعالمية، وأن من واجبه أن يبلغها العالمين. فيرى في المعتدين على أرضه وخصوصياته سداً منيعاً يقف في وجه دعوته، فيسعى جاهداً لإنهاء واقع الاستعمار حتى تأخذ الرسالة العالمية مجراها السديد من جديد. وبغض النظر عن الاختلاف الحاصل بين أهل النظر في

المقصود بـ"كونية الأخلاق الإسلامية"، فإن تلك "الكونية" هي وقود مشعل لنار المقاومة.

### - أن تكون "أخلاقاً عميقة":

ومعنى ذلك أنها ناتجة عن "الجمع بين العقل والقلب"، أي على النقيض من "التفرقة بين العقل والقلب". وهي "عميقة" لأنها "أخلاق تطهير لا تجميل، تأهيل لا تثبيط، تجديد لا تقليد. وبهذا تكون أوفى أخلاق بحاجة الحياة الخاصة للإنسان المنتظر".<sup>13</sup>

ويبقى طه عبد الرحمان، هنا أيضاً، حبيس ما يجب أن تكون عليه نفسية المقاوم. العمق هو مستقرّ الثبات والتضحية والبذل، وليس هذا العمق إلا القلب كما ورد في الأدبيات الإسلامية ("التداول الإسلامي").

ودائماً، يؤكد طه عبد الرحمان على أهمية العامل النفسي في المقاومة، ويجعل من الأخلاق الإسلامية ("المؤيِّدة") أساساً لقوته في "تداولنا الإسلامي". ونحن ننبه، دائماً، إلى أن هناك حقيقة أخرى خارج "مجالنا التداولي"، وأن "حقيقتنا الخاصة" تكفيها في معاركنا التاريخية.

### - أن تكون "أخلاقاً حركية":

ومعنى ذلك أنها ناتجة عن "الجمع بين العقل والحس"، أي على النقيض من "التفرقة بين العقل والحس". وهي "حركية" لأنها "أخلاق إشارة لا عبارة، انفتاح لا انغلاق، اجتماع لا انقطاع. فتكون أقدر أخلاق على هداية الإنسان المنتظر".<sup>14</sup>

13-نفسه، ص 169-170.

14-نفسه، ص 170.

يظهر طه عبد الرحمان هنا بمظهر "داعية التجديد الرافض للجمود والتقليد"، رغم ما أبداه سابقا من تأكيد على طلب "وسائل ناجعة" لتحقيق "مقاصد نافعة"، والشرط فيهما معا هو "اليقين". ولكن، فلنستثمر ادعاء طه عبد الرحمان للتجديد والانفتاح، لنؤكد على أهميتهما للمقاومة في عالم متغير. وعليه فما هو مطلوب للحركة الإسلامية، في مختلف دول الوطن العربي، يعدّ مطلوبا للمقاومة الإسلامية في غزة والداخل الفلسطيني. وليكن التجديد نظريا بداية، فهو أساس إعادة النظر في العديد من العلاقات والاستراتيجيات والمواقف والخطابات. تقدم حركة "حماس"، مؤخرا، على الكثير من المراجعات، إلا أنها ما تزال مطالبة بتعميق المراجعة أكثر. فواقعها المحتدم بالصراع يشجعها أكثر على ذلك، واقترابها من سلاح "النقيض الرأسمالي الإمبريالي" يؤهلها للمراجعة أكثر من غيرها.

نقصد بالمراجعة النظرية تبني مناهج تفسيرية حديثة (في التاريخ والاقتصاد السياسي)، يرفضها طه عبد الرحمان بالتأكيد، ويسمي الاستفادة منها انبهارا وافتتانا بالغرب. والحقيقة أن خطاب طه عبد الرحمان صالح لقواعد المقاومة، أما قيادتها فلن يزيد لها خطابه إلا بعدا عن المراجعة المطلوبة.

- أن تكون "أخلاقا خبرية حكاية":

يقول طه عبد الرحمان: "المقتضى الأخلاقي في العالم المنتظر، أن يكون التخليق بطريق الخبر والحكاية، لا بطريق الأمر والوصاية"<sup>15</sup>.

وهذا نقاش آخر في "صيغة التلقي الأخلاقي"، والمقتضى -في نظر طه عبد الرحمان- أن تكون هذه الصيغة خبرية حكاية، أي أن يتم وضع "الأمر والوصاية"

في قالب "خبر أو حكاية". إنه منطلق ذو أصول صوفية، ويتأكد معه ما قلناه من أن فلسفة طه عبد الرحمان "عرفانية". فالأخلاق تُتَعَلَّم من أخبار المعارك، وخير تلك الأخبار ما كان عن معركة يعيشها المقاوم عينه. يقول علال الفاسي: "فإن التربية بالحال أفضل من التربية بالمقال"، واقتنع أبو حامد الغزالي بمنهج المتصوفة في المعرفة لأنهم "أرباب أحوال لا أصحاب أقوال"، وهذا المعنى هو ما ساقه سيد قطب في سياق معركة عندما تحدث عن تربية الصحابة (رضوان الله عنهم) بالهزيمة والانكسار في غزوة أحد، وفي هذا الإطار تحدث جورج بوليتزر جاعلا من نضال الطبقة العاملة مدرسة لتوعيتها بواقعها والمطلوب منها<sup>16</sup>.

قد لن يبلغ طه عبد الرحمان هذا المستوى من "طلب الوعي الملموس في الواقع الملموس"، ولكن قوله بأهمية "الخبر والحكاية" في التخليق، هو ما وجدناه مكتنزا لقيمة "العمل" وبعدها الواقعي. فبنينا "الواقع" على "الخبر والحكاية"، و"الوعي بهذا الواقع" على "التخليق العملي". وكلاهما، الأخلاق والوعي، العمل والعلم، مهمان بالنسبة للمقاوم، وإلا فقد القدرة على البذل إذا غاب العامل الأول، وسداد العمل إذا غاب الثاني.

---

16- علال الفاسي، مهمة علماء الإسلام/ أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال/ سيد قطب، هذا الدين/ جورج بوليتزر، أصول الفلسفة الماركسية.

#### 4- ثغور المقاومة

تحتل القضية الفلسطينية مكانة عزيزة في وجدان المسلمين وأبناء الوطن العربي، وهي في وعي العديد من مفكري الوطن العربي قضية مواجهة احتلال وتصفية استعمار. إنها قضية في الأرض، لا يمكن أن ننفي بحال من الأحوال الأدوار التي تلعبها العقيدة في التزام غرزها. وبما أن العقيدة قابلة للتأويل، فإن بعض المواقف تحولها من إطار الفعالية الإيجابية إلى إطار فعالية أخرى سلبية. وعوض أن تكون عامل ثبات وتشبث بالحق في الأرض، تتحول إلى سحر يلهي قيادة المقاومة عن التحليل السديد واتخاذ القرارات السديدة. ربما هذا ما حاول محمد العمري<sup>17</sup> قوله، منتقداً أطروحة طه عبد الرحمان: "كتب طه عبد الرحمان تميمة للقضية الفلسطينية. إنها قضية في الأرض، أبقى إلا أن يجعلها قضية من قضايا السماء". فهل يصدق هذا القول على طه عبد الرحمان مطلقاً؟ أليس في أطروحته ما ينفع المقاومة والواقفين على ثغور القضية الفلسطينية؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه أسفله.

المرابطون، في تفصيل طه عبد الرحمان، أربعة: المقدسي، والفقيه، والسياسي، والمثقف العربي. وهم يقفون على أربعة ثغور:

#### - ثغر المقدسي:

يؤذي الاحتلال الصهيوني، في نظر طه عبد الرحمان، "إله الإنسان" و"الإنسان ذاته". وهكذا، تصبح المعركة ضده معركة في الأرض والسماء معاً، لأنها دفاع عن المطلق في ذاته وتعالیه، وعن مقاصده وفطرته وقيمه في الأرض.

---

17- محمد العمري: أكاديمي وبلاغي مغربي، صاحب "زمن الطلبة والعسكر". اهتم فترة من الزمن بنقد مشروع طه عبد الرحمان.

يؤذي الاحتلال الصهيوني الإله بما يسميه طه عبد الرحمان "الإحلال"، ويقصد به "منازعة الإله في صفة المالك"، فالصهاينة "أرادوا أن يملكوا أرضا هي ملك لله" وحده.

ويؤذي الإنسان بما يسميه "الحلول"، حيث يعمل الكيان الصهيوني على "قلب القيم" و"سلب الفطرة". يقلب القيم، بالإحلال بـ"علاقة الفلسطينيين بالزمان، وبالتالي بالمكان". ويسلب الفطرة، بـ"التطبيع، وتضييع الطبيعة والروح والقداسة والحياء".

لا بد أن يسترجع المرابطون الفلسطينيون (المقدسيون) روح الأرض والفطرة، فروح الأرض "القداسة" لأنها أرض الله، وروح الفطرة "الأصالة" لأنها فطرة الله. وهذه هي "المقاربة الائتمانية" للمرابط المقدسي، وهي التي تجعله:

أولا: ينتفض على "إيذاء الإله بالرجوع إلى ميثاق الأمانة المأخوذ من الإنسان"، فيعمل جاهدا على: مواجهة ملكية الصهاينة لأرض الله، وحماية البعد الروحي للقضية (الائتمانية).

ثانيا: يقف في وجه "إيذاء الإنسان بالرجوع إلى ميثاق الإشهاد المأخوذ من الإنسان"، فينهض لمواجهة التطبيع بمختلف تجلياته في: "سلوك الفرد المطبع الخائن لأمانة الحرية التي في ذمته"، و"تدبير الحاكم المطبع الخائن لأمانة العدل التي في ذمته".<sup>18</sup>

لكلام طه عبد الرحمان، في تحديد الثغر الذي تقف عليه المقاومة الفلسطينية، وجهان:

18-طه عبد الرحمان، ثغور المرابطة: مقاربة ائتمانية لصراعات الأمة الحالية، منشورات مركز مغارب، الطبعة الأولى، 2018، ص 62-63.

أولاً؛ وجه تقدمي إيديولوجيا، فالمقاوم الذي يعتقد أنه يدافع عن الغيب في معركة أرضية، يكون أرسخ في الثبات والصمود من غيره. يزعم لنفسه خوض المعركة نيابة عن الإنسانية جمعاء، فينزع بعزم لحماية دينها وفطرتها. وحيث يزعم الصهيوني المؤدلج بـ"يهودية محرّفة" دفاعا عن "أرض ميعاده وحده، وجبل الهيكل له وحده، وحائط المبكى له وحده"، فإن المقاوم الفلسطيني يستشعر أمانة الدفاع عن عالم بأسره.

ثانياً؛ وجه رجعي معرفيا وتاريخيا وسياسيا، فالذي يصنع النصر في المعارك التاريخية ليس الحق، وإنما ميزان القوى، وهذا ما يهمله طه عبد الرحمان، أو يلمح إليها بعض تلميحات خفيفة لا تؤدي أقل المطلوب. لكل ظاهر قواعد وجب البحث عنها داخل الظاهرة لا خارجها، أي في كلها وعلاقاته وترايط أجزائه وتغيراته (في سيرورته الكمية) وتحولاته (في سيرورته الكيفية). كذلك هي ظاهرة احتلال فلسطين كظاهرة سياسية / اقتصادية / اجتماعية... الخ. والتاريخ يقتضي أن نضع تحولات الوطن العربي، ومنها احتلال فلسطين، في سياق تاريخي، هو سياق استعمارين رأسماليين: استعمار قديم بريطاني، واستعمار جديد صهيوني. وهما معا استعماران مفسّران تفسيراً تاريخياً، باعتبارهما استعمارين رأسماليين احتكاريين. الأول مباشر، والثاني وظيفي. الأول ينتمي إلى القسمة الرأسمالية ما بعد الحرب العالمية الأولى بين فرنسا وبريطانيا، والثاني ينتمي إلى القسمة الرأسمالية ما بعد الحرب العالمية الثانية بين أمريكا والاتحاد السوفياتي، ثم إلى الاحتكار الأمريكي مؤخراً. والذي يحدد صحة الاجتهاد من عدمها، بخصوص القرار المناسب، أهو قرار التطبيع أم قرار المقاومة أم قرار الجمع بينهما، هو "الواقع الملموس للقضية"، بمعنى: ميزان القوى الدولي، واقع

الرأسمال الغربي/ الأمريكي خاصة... وغيرهما. المبدأ شيء، وتنزيله السياسي شيء آخر.

### - ثغر الفقيه:

وقع النظام السياسي السعودي في "آفة الاختلال في الوجة منقلبة عليه مقاصده"، و"استطاع أن يستخدم الفقهاء الوهابيين غير السياسيين في إضفاء الشرعية على تصرفاته التي بلغت حد التخلي عن بعض المعتقدات ("الولاء والبراء" / "معتقد أخوة المؤمنين") مستبدلاً بها معتقدات أخرى كـ"معتقد القومية العربية".<sup>19</sup>

الكفيل برفع آفة النظام السياسي السعودي هو "الفقيه التعرفي الذي يتجاوز صور الأحكام الشرعية إلى أرواحها التي هي القيم باعتبار هذه القيم آثاراً للصفات الإلهية"، وهو عينه الفقيه الذي "ينقل النظام السعودي من الدين المفصول عن السياسة فصلاً تحكيمياً أو تاريخياً أو علمانياً إلى الدين الموصول بها أئتمانياً، ومن "الفقه التقنني" الذي يجمد على ظاهر العلاقة الإجبارية في الأحكام الشرعية إلى "الفقه التعرفي" الذي ينفذ إلى الأصل الاختياري الأئتماني المؤسس لهذه الأحكام".<sup>20</sup>

لينصر النظام السعودي، وكل دولة في نفس شروطه وبنفس خصائصه، القضية الفلسطينية، لا بدّ أن يقوم "الفقيه التعرفي" بأدواره أعلاه. هكذا يرى طه عبد الرحمان أزمة النظام السعودي، وهكذا يزعم الحل الكفيل بإنهائها. "المذهب الحنبلي والعقيدة الوهابية" إيديولوجيا دينية رسمية للسعودية، خدمت بها عدة مصالح: الطبقة الحاكمة، أمريكا، تأسيس الدولة السعودية وتطورها. لقد

19-نفسه، ص 111-112.  
20-نفسه، ص 187-188-189-190.



كانت هذه المصالح هي المحددة، إلا أن طه عبد الرحمان يهملها، ليتوسل بـ"فقيه تعرفي" لا نعلم أين سيتم تكوينه في ظل نظام معبر في حقيقته عن علاقة جدلية بين "نمط من الفقه والاعتقاد" و"نمط من الحكم والسيطرة". لو جاز لنا أن نبدع فيما ينبغي أن يكون عليه النظام السعودي لأبدعنا في الاقتراح والطلب، ولكن السياسة تطلب حقيقتين: "معرفة ما هو كائن معرفة ملموسة وتفصيلية"، و"فعل الممكن من بين ممكنات أخرى". لا قرأنا على أن فيلسوفنا قد درس بتفصيل تاريخ السعودية وبنائها التحتية وواقعها في الشرط التاريخي وميزان القوى الدولي الحاليين، وبيننا وبينه المتن الذي بين أيدينا، إذ ما ورد فيه هو الدليل على ادعائنا.

#### - ثغر السياسي:

ووقع النظام السياسي الإيراني في "آفة الاغترار بالقدرة منقلبة عليه وسائله"، و"أضحى الفقهاء الخمينيون أنفسهم هم أربابه، منزليين التدبير السياسي رتبة أعلى من رتبة التعليم الديني، هذا التدبير الذي يتولاه فقيه لا سلطان فوق سلطانه"<sup>21</sup>.

والكفيل برفع آفة النظام السياسي الإيراني هو "السياسي التقربي الذي يتجاوز إرادة الذات في التدبير إلى تبعيتها لإرادة المدير الأعلى سبحانه"، وهو عينه السياسي الذي "ينقل النظام الإيراني من السياسة المفصلة عن الدين فصلا تظلميا إلى السياسة الموصولة به وصلا أئمانيا، ومن السياسة التحكيمية التي تتمسك بسلطان الإنسان إلى السياسة التقريبية التي تتمسك بسلطان الإله"<sup>22</sup>.

ما يصدق من قول على السعودية يصدق على إيران، فلهذه الدولة:

21-نفسه، ص 111-112.

22-نفسه، ص 187-188-189-190.

- إيديولوجية تحتها المصالح العينية والفعلية للدولة الإيرانية ومختلف فئاتها الاجتماعية.

- استراتيجية فرضتها التحولات التاريخية لإيران وموقعها الجغرافي وميزان القوى الدولي.

الفقهاء في إيران، كما هم في السعودية وفي أي أرض أخرى، ينتجون خطاباً معبراً عن مصالح مادية، في المنحى التقدمي أو الرجعي، سواء تحقق وعيهم بذلك أو لم يتحقق. واللبيب من الفقهاء من أحسن تحديد إشكاليته التقدمية بمجهوده الخاص، أو باستشارة الأكفاء من "محققي المناط". لن يفهم هذا الكلام من لم يميز بين: "حقيقة في الغيب" و"أخرى في الشهادة"، وطه عبد الرحمان من هؤلاء. الوجود نفساني، والاجتماع تاريخي موضوعي. وبنزول الوجود إلى الاجتماعي، سرعان ما يصبح ملكاً بين يديه ولا يؤثر فيه إلا بمقدار ما يسمح به الشرط التاريخي وقواعد التاريخ.



### تعقيب في العلاقة بين السعودية وإيران:

النظامان معاً، السعودية وإيران، في حاجة إلى "ثورة" يقودها: "فقيه تعرفي" في السعودية، و"سياسي تقربي" في إيران. وذلك ما يعبر عنه طه عبد الرحمان بقوله: "ولا شك أن الثورة الأخلاقية التي تقوم على "الفقاهة التعرفية" بالنسبة للنظام السعودي، وعلى "السياسة التقريبية" بالنسبة للنظام الإيراني سوف تخلق واقعا أئتمانيا غير مسبوق".<sup>23</sup>

والحقيقة أن هذا النموذج من الفقه والسياسة لا يفسر من واقع النظامين شيئاً، أضف إلى ذلك أنهما لن يتحققا مهما حُلم بهما طه عبد الرحمان، كما أن العلاقة بين السعودية وإيران لا تنتج عن حُلم وإنما عن وعي قادة الطرفين بأن مصالحهما الاستراتيجية المشتركة ستتحقق بالتحالف بينهما. وبعد الوعي، يأتي العمل على تنفيذ الحلف بالتدرج في واقع يتسم بالآتي: علاقة السعودية بحلفائها المدنيين في الداخل الأمريكي وخوفها على حدودها من التوسع الإيراني في المنطقة، حاجة إيران إلى أوراق ضغط في سبيل إنجاز استراتيجيتها العسكرية (النووية) ما يجعلها تقترب تكتيكياً من العسكريين في الداخل الأمريكي، علاقة كل من النظامين بمحيطهما الإقليمي وبالقوى الشرقية الصاعدة (الصين، روسيا)... الخ. كلها معطيات لا يستحضرها طه عبد الرحمان، بل لا يكلف نفسه عناء النزول عندها.

ونحن نقول: "من شأن الحلف بين السعودية وإيران أن يخدم القضية الفلسطينية، كما من شأنه أن يشكل سندا قويا للمقاومة الفلسطينية، إلا أن تحقيقه في واقعه أكثر تعقيدا وخاضع لميزان القوى الدولي، لا لرغبات ومثاليات المفكرين والفلاسفة".

ننتقد تفسير طه عبد الرحمان وتصوره لحل أزمة العلاقة بين النظامين السعودي والإيراني، إلا أننا لا نبخسه حقه في مقصده المطلوب والتاريخي: التحالف بين النظامين على مواجهة "الكيان الصهيوني". كما أن قوله بحاجة النظامين إلى الإصلاح قول معتبر صحيح، بالرغم من اختلافنا معه في نوع وكيفية الإصلاح الذي يريه.

## - ثغر المثقف العربي:

يقول طه عبد الرحمان: "فوجب إيجاد فصيل من المثقفين، مدركين أن الثقافة إنما هي أئتمان "الإنسان-الآية"؛ وهؤلاء المثقفون الجدد هم "المثقفون المرابطون"، إذ تتجاوز ملازمتهم لثغور الظلم والقتل والفساد التزام المناضلين السياسيين، اختيارا واشتراكا وأئمانا وانتقادا وانفتاحا، يصلون السياسي بالأخلاقي كما يصلون الديني بالإنساني، مقتبسين قيمهم من الصفات الإلهية، ومعتبرين القيم الدينية أسس ثقافتهم الأئتمانية التي هي "ثقافة إحياء"؛ أهم مبادئها الإحيائية: "ترك إرادة الإيذاء"، و"اعتبار قتل الأخ الواحد قتلا للإخوة جميعا"، و"تفضيل التعامل بالإحسان على إقامة العدل"، و"ترك الاشتغال بالسياسة الاحتيازية"، و"الاستباق إلى رد الأمانة"، و"الإشفاق تحملها".<sup>24</sup>

يجعل طه عبد الرحمان صفة "مثقف" حكرا على نمط من الثقافة، تلك هي "الثقافة المبدئية المثالية"، والحقيقة أننا في حاجة إلى أنماط عديدة من المثقفين:

**أولاً؛ "مثقف المثل"**، يحافظ على المطلق فينا، في وجداننا ومطالبنا. يعلم أن الإنسان لم يكن إلا بقهر الغابوية والغريزية، وأن المثل كانت كفيلة ليس بتحققها مطلقا، ولكن بمقاومة السلوك الغريزي في الإنسان.

**ثانياً؛ "مثقف الذاكرة"**، يذكرنا بخصوصياتنا وهويتنا الوطنية والعربية والإسلامية. يذكرنا أننا أمة، وأن لنا استراتيجية هي "استراتيجية الإسلام". يذكرنا بأمجاد الماضي، ويحيي بها أمل المستقبل فينا. يستحضر ماضينا لحاضرنا، ويجعل منه إيديولوجية فاعلة إيجابا في شرطنا.

ثالثاً؛ "مثقف المعرفة الحديثة"، يساعدنا على تصور الظواهر كما هي، و"رؤية الأشياء كما هي" (من دعاء للشريعة). يدفع في اتجاه نشر المعرفة العلمية الحديثة، وتفسير طبيعتنا بقوانينها، وتاريخنا بقواعده. لا ينكر وجودنا وغيابنا، ولكنه يسعى إلى خلق نوع من التمييز بينه وبين شهادتنا و"واقعنا الملموس".

رابعاً؛ "مثقف التحليل"، يجمع أكبر قدر من المعطيات الواقعية، ويخضعها لمنهج تحليل اجتماعي سديد (تاريخي). يرجع الجزء إلى الكل، ويقرأ الكل بقراءة أجزائه وترابطها وتناقضاتها وتغيرها وتحولها. يبحث في الأحدث ويزنها كما "يوزن بيض النمل"، فلا يكاد يجد معطى إلا وأعطاه قيمته في علاقته بباقي المعطيات الأخرى.

خامساً؛ "مثقف الممارسة العملية"، ينتج الخطاب والإيديولوجيا، ولا يفارق ميدان القرار السياسي والإيديولوجيا المدافعة عنه. في علاقة دائمة مع "مثقف التحليل"، بل قد يكون هو نفسه. يتأذى بما يتأذى منه السياسي، لأنه سياسي في نهاية المطاف، والسياسة مصالح ونزاع حولها.



قد تجتمع هذه الصفات في نفس المثقف، والأهم أنها مطلوبة جميعاً، كلما تكلمنا عن مصلحة دولة ومجتمع. وبخصوص القضية الفلسطينية، فنحن بحاجة إلى مثقف عربي (ليس المقصود هو العرق، وإنما وحدة القضية/ الوطن العربي) إسلامي:

أولاً؛ يصف ما يحدث في فلسطين على أنه ظلم، ويذكرنا أن "الله حرّم الظلم على نفسه وجعله بيننا محرماً" (حديث قدسي)، وأن "لا تحسبن الله غافلاً عما

يعمل الظالمون" (آية قرآنية)، وأن الله هو العدل وأمر بالعدل في كل قول أو عمل، بل وفي كل شعور.

**ثانياً؛** يذكرنا بمكانة القدس والأقصى وفلسطين في "العقيدة الإسلامية"، ويجمع مختلف الأدلة التاريخية على عربية وإسلامية فلسطين، ويذكرنا بتاريخ ملاحم المقاومة والشعب الفلسطيني، وكذا بانكساراتنا وهزائمنا العربية والإسلامية فيها. ففي الأولى شحذ للهمم، وفي الثانية اعتبار وبحث عن أسباب الهزيمة.

**ثالثاً؛** يتصور القضية الفلسطينية كما هو مطلوب في عالم الشهادة، باعتبارها ظاهرة تاريخية ناتجة عن موجتين استعماريتين رأسماليتين احتكاريتين: بريطانية مباشرة، وصهيونية وظيفية. يستمد عبقريته في التصور والتفسير من مناهج العلوم الحديثة: التاريخ، الاقتصاد السياسي، الاقتصاد، السوسيولوجيا، الأنثروبولوجيا... الخ.

**رابعاً؛** يحلل ما استجد من وقائع وأحداث وقرارات سياسية في فلسطين والوطن العربي والعالم ككل، بجمع ما أمكنه من معطيات وإخضاعها لمن تحليل سديد. ولا يبخل في تقديم تحليله لقادة المقاومة الفلسطينية ورؤساء الدول العربية الإسلامية وزعماء حركات التحرر الوطنية.

**خامساً؛** لا يفارق الميدان، يبقى قريباً من صناع القرار السياسي الميداني من قادة المقاومة الفلسطينية أو من مسؤولي الدول، يتصرف في السياسة الخاصة بملف القضية الفلسطينية أو يوجه من يتصرف فيها، وينتج الإيديولوجيا الخاصة بكل معركة يخوضها الشعب الفلسطيني، أو تلك الإيديولوجيا العامة ذات العلاقة بتاريخنا وتراثنا بشكل عام.

إحياء  
للتنمية الأخلاقية



Ihyae  
Ethics Development



/ihyaeForum

جميع الحقوق محفوظة © 2021